Coptology

العظيم حقاً
أنطونيوس الكبير

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠١٧

www.coptology.org

يجيء عيد نياحة مؤسس الرهبنة في نهاية يناير من السنة الميلادية. وُصِفَ بأنه "أب جميع الرهبان" (جيروم. حياة الأنبا بولا: ٢). ربما كان عمره بين ١٨ أو ٢٠ سنة عندما مات أبيه. رقد في الرب سنة ٣٥٦م.

السيرة الكاملة كتبها القديس أثناسيوس الرسولي، وتُرجمت الى عدة لغات، أولاها اللغة اللاتيني لإيفاجريوس، وذكر القديس غريغوريوس اللاهوتي أن أثناسيوس هو كاتب السيرة في عظة مشهورة يمدح فيها القديس أثناسيوس الرسولي.

صدرت ترجمة عربية للسيرة، وهي ربما أول ما طُبع بالعربية باسم "المثال الصالح، سيرة القديس أنطونيوس أبو النساك المتوحدين"، تعريب جبرائيل بك روفائيل الطوخي. مطبعة النيل المسيحية ١٩٢٩ ونقلت عن السيرة التي نشرها Budge عن السريانية، ثم الإنجليزية. ولذلك تُعد السيرة، من الكتب العالمية؛ **أولاً** لأن الكاتب هو أشهر مؤلِّف نال لقب الرسولي، **وثانياً** لأنها سيرة أول مؤسس للحياة الرهبانية في شكلها القديم الأول قبل أن تتحول إلى حياة الأديرة.

لمسات لا يجب أن تضيع:

يُعد حديث الأنبا أنطونيوس عن الشيطان والأرواح النجسة في السيرة (فصل ٢١ – ٤٣) هو أطول حديث وصلنا من القرن الرابع عن هذا الموضوع، ويُعد بكل تأكيد أعظم ما في الأرثوذكسية من معرفة سليمة لا غش فيها ولا خداع.

ماذا يقول أنطونيوس العظيم لنا؟

في البداية تحدَّث عن خداع الشيطان، وأنهم خدعوا الأمم بالخيالات. وأنهم يحسدون المسيحيين. وأن هذا الخداع يُقاوَم بطلب موهبة تمييز الأرواح (٢٢).

١- أكد المعلم الكنسي حسب عبارته: "لا تخافوا من هجماتهم، لأنهم يُهزَمون حالاً بالصلاة والصوم والإيمان بالرب" (٢٣).

٢- "عندما لا يستطيعون خداع القلب بشهوةٍ دنسة وظاهرة، ينقضُّون بطريقة أخرى، فيثيرون التخيلات لإخافته، آخذين شكل النساء والوحوش والزحافات ... الخ. لا نرتعب من هذه الخيالات؛ لأنها ليست بشيء، وتختفي بسرعة عندما يحمي المرء نفسه بالإيمان وبإشارة الصليب" (٢٣ ص ٣٩ ترجمة منشورات النور).

٣- ومَن لا يُخدع بالفكر يُخدع بالخيال (٢٣). ولكن عندما يجدون "النفس مشدودة بالإيمان وبرجاءٍ في الإدراك، فإنهم يطلبون مساعدة رئيسهم" (ص ٣٩ من ترجمة منشورات النور، بعد مراجعة الترجمة على الأصل اليوناني، حيث ذكر الأب ميشيل نجم: "برجاء الفكر"، وهو تعريب غامض جداً، في حين أن المقصود هو أن الرجاء يُولَد في الوعي، وهو ما يغرسه الايمان فينا).

٤- وصف القديس أنطونيوس شكل الشياطين كما ورد في (أيوب ٤: ١٨-٢١)، وهو شكلٌ مرعب، ولكنه يقول: "علينا نحن المؤمنين ألا نخاف من ظهوراته، وألا نأبه بكلماته؛ لأنه كاذب ولا يتكلم بالصدق أبداً" (ف ٢٤: ص ٤٠). وهنا في هذا الجزء من الخطاب يحرص أنطونيوس على أن يقول: "يجب علينا نحن المؤمنين ألا نخاف من ظهوراته .. لأن الرب أوثقه كعصفور حتى نسخر منه" (٢٤: ص٤٠ – ٤١).

٥- والشيطان يذكِّرنا بالأمور الشريرة التي فعلناها في الماضي، وكما يقول المعلم أنطونيوس: "لتقود المستقيمين إلى اليأس ولتُظهِر لهم أن الحياة النسكية غير مفيدة" (ف ٢٥ ص ٤٢). في عبارة موجزة يقول عن الشياطين: "حتى لو ظهرت أنها تنقض علينا أو تهددنا بالموت، فهي ضعيفة ولا تقوى على شيء سوى التهديد" (ف ٢٧ ص ٤٢).

ماذا حقق التجسد؟

هكذا كان الإيمان، الذي نرجو أن لا يسقط في تقوى الخوف من الشياطين، تلك التقوى التي وصلتنا من العصر الوسيط، عصر الخوف. يقول أنطونيوس: "بسكنى الرب بيننا، سقط العدو وضعفت شياطينه، وأصبح عاجزاً عن تحقيق أي شيء. لكن بما أنه طاغية وساقط، فهو لا يهدأ، بل يهدد حتى لو كان تهديده بالأقوال فقط. فليصغ كلٌّ منا هذه الأمور في فكره، فإنه يقوى على احتقار الشياطين" (ف ٢٨ ص٤٣-٤٤).

يدرك الأنبا أنطونيوس أهمية الخيال، فهو وإن كان قوةً مبدعةً في حياة الإنسان، إلا أنه بسبب قوته وفاعليته، يحارب الشيطان كل البشر من خلال ذلك الجانب الفعال، ولكن هكذا يضع أنطونيوس معالم الطريق:

١- "هي على يقين بأننا بالقدر الذي نتقدم فيه روحياً تضعف هي". ويضيف: "لو كانت تملك القوة لما تركت مسيحياً واحداً منا على قيد الحياة" (ف ٢٨ ص٤٤).

٢- "إن كل ذي سلطان لا يلجأ الى القتل بالخيال، ولا يثير الرعب بالضجيج، بل يستخدم قوته بسرعة كما يشاء. لكن بما أن الشياطين لا قدرة لها، فهي تمثل على المسرح مغيِّرة شكلها ومرعبة الأطفال بأشباحها واشكالها، فيكون ضعفها سبباً لاحتقارها" (ف ٢٨ ص ٤٥). واحتقار الشيطان، ينزع الخوف من القلب؛ لأن الشيطان لم يكن له قدرة حتى على الدخول في الخنازير (متى ٨: ٣١)، ولذلك يقول أنطونيوس: "إذا كان الشيطان لا يملك السلطة على الخنازير فكم بالحري على الذين هم مخلوقون على صورة الله" (ف ٢٩: ص ٤٦).

الشيطان ومعرفة المستقبل:

قدَّم القديس أنطونيوس بهذا الخصوص شرحاً مبسطاً، وهو يعلل ذلك بأن الشياطين لها أجسام خفيفة، ولذلك هي تشبه فارساً يسبق مَن يسير على قدميه (راجع فقرة ٣١ كلها، ص ٤٧ – ٤٨)، فهي تركض بسرعة لتعلن ما حدث في أماكن بعيدة. بل إنه يراقب نزول المطر في الحبشة (ف ٣٢ ص ٤٨)، ثم يأتي ليخبر عن ارتفاع النيل. من هنا نشأ السحر في الوثنية (ف ٣٣: ص ٤٩). والقاعدة اللاهوتية هي أن معرفة المستقبل: "لن تصنع الفضيلة، ولن تكون علامة على الخُلق الصالح. فلن يدان أحد منا لأنه يجهل المستقبل، ولن يطوَّب إذا عرفه. إذ أن المرء سيحاكم على صونه للإيمان وحفظه للوصايا" (ف ٣٣ ص ٤٩-٥٠).

لذا حذَّرنا القديس أنطونيوس من طلب معرفة المستقبل، وطلب أن نختم أنفسنا بعلامة الصليب؛ لأن الشياطين "تخاف من إشارة الصليب؛ لأن المخلص عرَّاها من كل قوة مشهِّراً إياها" (ف ٣٥ ص ٥٠-٥١).

علامات تمييز الشياطين من الملائكة الأطهار:

١- ظهور الشياطين يجلب الرعب واضطراب النفس.

٢- ظهور الملائكة يخلق في النفس فرحاً وشجاعة (٣٥: ٥٠-٥١).

هل تواضع القديس أنطونيوس للشياطين؟

تقول مديحة شعبية نالت مكانة، وهي في مجملها جيدة، ولكن لابد من تغيير هذه الفقرة:

يا برج عالي وحصين تتواضع للشياطين

فكل ما في السيرة ضد هذا التعليم الغريب، ونؤكد ذلك بمثال صارخ. يقول أنطونيوس: "ظَهَرَ مرةً شيطانٌ طويل القامة جداً بعظمة وتجرَّأ على القول: أنا هو قوة الله، أنا هو العناية الإلهية. ماذا تريد أن أعطيك؟ أما أنا فذكرت اسم المسيح وبصقت عليه محاولاً لطمه، واعتقد أنني لطمته. وحالما سمع الطويل القامة اسم المسيح، اختفى مع كل من معه" (ف ٤٠: ص ٥٥).

لقد كان الشيطان يختفي كالدخان عندما يصلي، بل كان أنطونيوس يؤكد أنه "حالما سمع اسم المخلص لم يحتمل النار وصار غير مرئي" (ف ٤١: ٥٦). ثم يؤكد: "طالما أن إبليس نفسه يعترف بأنه لا يقوى على شيء، فمن الواجب أن نحتقره مع شياطينه" (ف ٤٢ ص ٥٧).

ومن يؤكد خوف الشيطان من اسم الرب ومن علامة الصليب، بل ويؤكد على احتقار الشيطان، ليس هو من يتضع أمام الشيطان؛ إذ لا توجد كلمة واحدة في السيرة تشير إلى ذلك. بل علينا أن نصنع كما يقول رسول الرب الذي وصف إبليس بأنه الخصم الذي يجول مثل الأسد الزائر: "قاوموه راسخين في الايمان" (١بط ٥: ٨). وقبل ذلك يقول نفس الرسول: "تواضعوا تحت يد الله القوية لكي يرفعكم في زمان الافتقاد (حسب الأصل) (١بطرس ٥: ٦).

ولذلك يجب تغيير مقطع المديحة الشعبية التي أشرنا إليها قبلاً إلى:

يا برج عالي وحصين يا مثال المنسحقين وأيقونة المتواضعين

وذلك بدلاً من تعبير "تتواضع للشياطين"؛ إذ لا يوجد تواضع للشيطان الخصم العنيد، ولا يوجد الخوف الشديد من الشيطان الذي أراد أنطونيوس أن يضربه.

كل عام وأنتم بخير مع قدوة الشجعان في الإيمان أنطونيوس الكبير.

د. جورج حبيب بباوي